حفظ القرآن الكريم في الصدور

ابو الوفا محمود

القرآن لغة: قرأ يقرأ قرءا وقراءة وقرآنا، فالقرآن مصدر على وزن "فعلان" بضم كالغفران والشكران. والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل. قال تعالى: (إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)[1] أي قراءته.

واصطلاحا: " هو كلام الله المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بوساطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس " هذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين[2].

استغرق نزول القرآن الكريم بين عشرين وثلاث عشرين سنة، فترتيبه وتنسيقه توقيفي، لم يجتهد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة في عهده، أو من بعده. والغرض من إنزال القرآن هداية الخلق إلى ما فيه حياتهم الطيبة في الدنيا والآخرة بتعريفهم بربهم ليعبدوه ويرجوا نعمته ويخافوا عذابه، وتعليمهم الأحكام التي تنظم علاقة الإنسان بربه والعلاقات بين الناس في حياتهم، فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق.

كان حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حفظه أكثر، فكان يحرك

---

* استاذ شيخ زيد إسلامك سنتر

لسانه في أشد حالات حرجه، وهو يعاني من سطوة الوحي، وثقل هبوط جبريل ما لا طاقة لغيره به، استعجالا لحفظه، وجمعه في قلبه، حتى طمأنه ربه بقوله: (لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه)[٣]. وكان يدعو لبعض أصحابه، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم علمه الكتاب[٤]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يترقب نزول القرآن فيحفظه ويفهمه مصداقا لوعد الله، فكان بذلك أول الحفاظ، وكلما يزول ثقل الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم يبلغ صحابته ما نزل به جبريل، فيحفظونه ويعرفون معناه. فقد خصهم الله بسرعة الحفظ، وقوة الاستظهار، والقوم أميون يعتمدون على حوافظهم. ويقول الدكتور بكري شيخ أمين: "ومن شأن الأمي ـ في العادة ـ أن يعتمد على حافظته وذاكرته، ولقد كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن تتمتع بخصائص العروبة الكاملة، وفيها قوتة الذاكرة، وسرعة الحفظ، وسيلان الأذهان.."[٥]

وما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته، فكان نزوله مفرقا خير عون لها على حفظه في صدورها وفهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة، وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها. عن عمر رضي الله عنه قال: "تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم خمسا خمسا" [٦]. ويقول الزركشي: "فإنه عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ففرق عليه ليسر عليه حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء، فإنه كان كاتبا قارئا، فيمكنه حفظ الجميع إذا نزل جملة "[٧].

وقد امتاز هذا الكتاب المعجز فيما امتاز به بيسر تلقيه وتلاوته وحفظه وفهمه، بذلك ميزه الله تعالى بقوله: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر)[٨] وجعل الله تعالى من ميزاته أن يحفظ في الصدور كما يسجل في الكتاب... فقال تبارك وتعالى: (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)[٩] وقد أقبل الصحابة رضوان الله عليهم على القرآن الكريم تلاوة وحفظا وتحفيظا، يتنافسون في استظهاره، ويتفاضلون فيما بينهم بمقدار ما يحفظون منه، وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها، فيحفظون أزواجهم وأولادهم، ويقرؤن به في صلواتهم في جوف الليل، حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع فيها دويا كدوي النحل بالقرآن الكريم.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على بيوت الصحابة ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقرآن في بيوتهم. فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لأعرف رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار"[١٠] كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يبعث إلى من كان بعيد الدار منهم، من يعلمهم ويقرئهم القرآن، فبعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة يقرئانهم القرآن، كما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء. قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: " كان الرجل إذا هاجر دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا " [١١] وعن

عبد الله بن عمرو قال: " جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأه في شهر " [١٢] والجمع هو الحفظ.

وكان من الطبيعي أن يحفظ القرآن في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم عدد كبير من الصحابة، فمن المهاجرين: الخلفاء الأربع، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، ومولاه سالم، وأبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص وابنه عبد الله، ومعاوية، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن السائب، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة. ومن الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك وغير هؤلاء وأولئك كثير رضي الله عنهم أجمعين. وقد أورد البخاري في صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفاظ الذين حفظوا القرآن الكريم كله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يعني الحصر. ويقول الأستاذ مناع القطان: إن الصحابة تفرقوا في الأمصار، وحفظ بعضهم عن بعض، ويكفي دليلا على ذلك أن الذين قتلوا في بئر معونة من الصحابة كان يقال لهم القراء، وكانوا سبعين رجلا، كما في الصحيح، قال القرطبي: "قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء ــ وقتل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ببئر معونة مثل هذا العدد " [١٣] وأفرد السيوطي بابا في معرفة حفاظه ورواته[١٤]

وكان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يقرأ لهم فيسمعون منه ويحفظون بل كان لا يكتفي بالإسماع ويحب أن يسمع منهم، كما طلب من ابن مسعود أن يقرأ عليه فقرأ عليه سورة النساء، حتى وصل إلى قوله تعالى: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال: حسبك الآن فإذا عيناه تذرفان[١٥]

وربما كان الصحابة يختلفون في القراءة فيرجعون إليه ليصحح لهم كما حدث من عمر بن الخطاب حين اختلف مع حكم بن هشام لما قرأ سورة الفرقان. قال البخاري: "قال عمر: سمعت حكم بن هشام يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره في الصلاة فتبصرت حتى سلّم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنيها رسول الله، فقلت: كذبت لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسله. اقرأ يا هشام ! فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه"[١٦] وقال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة: كان جبريل يعارض بالقرآن كل سنة وإنه عارضني مرتين أي القرآن كله ولا أراه إلا حضر أجلي " [١٧]

وكان صحابته يحفظون القرآن ويكررونه ويؤخذ عنه، فقد دعاهم إلى حفظه وتعهده وإقرائه بقوله: " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " [١٨]

وجاء التابعون على أثر الصحابة يحفظه منهم خلق لا يحصون وهكذا كان يتلقاه الخلف عن السلف بالسماع منهم والقراءة عليهم.. وبهذا تعاون التواتر السماعي على حفظ القرآن الذي وعد الله سبحانه وتعالى بقوله: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[١٩] وهذا السماع هو الذي عول عليه في ألفاظ القرآن وكيفية أدائه على قواعد القراءة التي دونها العلماء

فيما بعد. ولذلك لا يجوز الحفظ من المصحف من غير معلم يصحح للقارئ نطقه وأداءه كما يفعل الناس الآن. ويؤكد ابن الجزري "أن الاعتماد في نقل القرآن علىٰ حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب، أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة "[٢٠]

وانتشر الإسلام فبدأ كتاب الله يحفظ ويتلى في غرف ملحقة بالمساجد تستقبل فيها الناشئة من أطفال المسلمين، بعد أن كان في المسجد، يملأ حلقاتها الكبار. وقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم في كل بلد ينطق بالعربية أو لا ينطق بها. وصار لكل بلد منهج خاص لتعليم القرآن وحفظه. فأهل المشرق يتعلمون القراءة والكتابة وبعض علوم أخرى ثم ينتقلون إلى حفظ القرآن وإجادة تلاوته. ويبين ابن خلدون منهج أهل المغرب والمشرق في حفظ القرآن:

"أما أهل المغرب فمذهبهم الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتابة إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم. وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك فيضيفون إلى القرآن بعض العلوم، ويخلص من ذلك إلى أن جميع الأقطار تبدأ بتعليم القرآن، وإن كان أهل المغرب يقتصرون عليه " [٢١]

أما مدارس تحفيظ القرآن، فلها نظام خاص تنفرد به عن مدارس أخرى، وهي منتشرة في جميع البلاد الإسلامية، حيث يبدأ الصبيان يومهم المدرسي بحفظ القرآن حتى الظهر، ثم ينصرفون إلى بيوتهم أو إلى غرفهم السكنية، وأكثر مدارس التحفيظ لها فترة مسائية.

فالطالب يقرأ درسه الذي يشتمل على آيات حسب نشاطه الفردي، ويحفظه بنفسه بعد مراجعته على شيخه، ويشرف على الطلاب شيخ واحد، ويعاونه مجموعة من الطلاب وهو غالبا من التلاميذ الكبار الذين يساعدون شيخهم في إجازة حفظ "ألواحهم". ويسهل على الشيخ تحفيظهم إذا كان عددهم من عشرين إلى ثلاثين. ويأخذ الطالب مدة ثلاث سنوات للحفظ، وربما أقل منها، ويعتمد على ذلك قدرة التلميذ ونشاطه.

تستمر الدراسة طوال أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة، وتستمر الدراسة أيضا طول السنة، لا تنقطع إلا في الأعياد. وعند ما يبدأ الطالب حفظ القرآن أو قراءته فيقام له احتفال في بعض الأماكن، يسمى عادة "بسم الله " وعند ما يتم حفظه يقام له احتفال خاص أيضا، فرحة بما أنجزه من عمل جليل. وأحيانا يجد بعض الطلاب دقة في حفظ القرآن فلها سببان رئيسيان

١ـ تغيير الأستاذ

٢ـ ترك الطالب مراجعة ما حفظ لفترة.

إن القرآن الكريم يكون لحافظه معينا في دراسته، وغالبا يكون من المتفوقين. ومن حفظ القرآن أتقن اللغة العربية وأجادها، والإسلام جعل العربية لغة للمسلمين، وأقبل المسلمون على كتاب ربهم يحفظونه في لغته التي نزل بها، وانتشرت مدارس القرآن، يتتلمذ فيها الصغار والكبار وأصبحت العربية لسان البيئات الإسلامية، وشهد الناس معجزة من معجزات هذا الكتاب الكريم، وبتأثير القرآن الكريم انتشرت العربية في البلاد الإسلامية حتى أصبحت اللغة العالمية الأولى.

ولكن مع الأسف يعتبر حفاظ القرآن ومتخرجي المدارس الدينية أميين في نظر المستعمرين وعملائهم، وأنهم لا يعرفون

القراءة والكتابة ماداموا لا ينطقون ولا يكتبون اللغة الانجليزية لغة المستعمر. بل إن الحكومات في آسيا وأفريقيا تقدم المعونات السخية للمدارس "الحديثة"، ولا تقدم أية معونة لمدارس تحفيظ القرآن والمدارس الدينية. كما أن أجهزة الإعلام التي يملكها العلمانيون في كثير من البلاد الإسلامية تسخر من تعاليم الدين، فيلقب صاحب الدين بـ"ملا"، ويلقب الأعمى بـ "حافظ"، فعاش المتخرجون في المدارس القرآنية والإسلامية أشبه بالمنبوذين في بلادهم، ويعيشون عيش الفقراء.

وتخرجت في المدارس " الحديثة" أجيال ليس معها ما يربطها بدينها، ولا صلة لها بالقرآن الكريم، فسهل على أصحاب الأفكار المنحرفة أن يجدوا فيهم صيدا ثمينا. ومن انتشار هذه المدارس انقرضت مدارس تحفيظ القرآن، فلا نجد المتخصصين في الدراسات الإسلامية والعلماء ممن يحفظون القرآن الكريم إلا قليلا منهم. ونتيجة ذلك أن ظهر في البلاد الإسلامية علماء جهلة، ليس لهم من الحياة العلمية إلا تلك المؤهلات التي يحملونها في غيبة من التقويم الصحيح، فيحرمون الحلال ويحلون الحرام ليرضي الملوك والحكام.

وفي القارة الهندية تهتم بحفظ القرآن طبقة خاصة وهي طبقة الفقراء، وقد أدى إلى ذلك عدم توفر الرسوم المدرسية فيلجأون إلى المدارس المدينية، أما طبقة الأغنياء فيوثر عدد كثير منهم أن يدرسوا أبناءهم في المدارس الحديثة. وعلى رغم كل ذلك فما زالت القارة الهندية تمتاز بحفظ القرآن الكريم وقراءته.

أما علم التجويد في هذه القارة — فكما ذكر ملا عبد القادر بدايوني في منتخب التواريخ - أنه لم يؤلف كتاب فيه إلا في عصر جلال الدين أكبر، الذي كان يعاتب دارسي اللغة العربية، وحاول

القضاء عليها. فأخرجت من اللغة بأمره الحروف التي تختص بالعربية نحو: الثاء، والحاء، والعين، والصاد، والضاد، والطاء والظاء. حتى وصل الأمر إلى أنه إذا أفسد أحد الألفاظ العربية فكان الملك أكبر يسر به نحو: تحويل كلمة عبد الله إلى أبد الله، وإحدى إلى إهدى[٢٢].

فحاول الشيوخ يؤلفون الكتب في القراءة والتجويد، لكي لا يدخل الفساد في قراءة القرآن، وافتتحت مدارس القرآن في الهند. وأكبر مدرسة فيها هي مدرسة " باني بت " التي بناها الشيخ عبد الرحمن باني بتي عام ١٨٩٦ م، وصارت المدرسة تمتاز بقراءة خاصة. وفي عام ١٩٤٧ م أسست باكستان " فكان عدد المسلمين في باني بت أنذاك أربعين ألفا، وحفظة القرآن منهم سبعين في المائة رجالا ونساء " [٢٣]

ونحن لا نشك فيه إذا كان لدينا معرفة عن كثرة وجود المدارس القرآنية في القارة الهندية، وإقبال الناس عليها.

إن العالم الإسلامي اليوم يعاني من قلة الحفاظ، ويجب علينا أن نصحح المسار التعليمي لهذه الامة لتعود إلى كتاب الله العزيز بحفظه ودراسته وتسهم في بناء الشخصية المسلمة المتميزة.

المراجع

(١) سورة القيامة: ١٧،١٨

(٢) التعبير الفني في القرآن ـ د. بكري شيخ أمين ـ دار الشروق بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ (ص ـ ١١)

(٣) سورة القيامة: ١٦ ـ ١٩.

(٤) صحيح البخاري ـ محمد بن إسماعيل ـ كتاب العلم ـ المكتبة الإسلامي ـ تركيا. ط. ١٩٧٩ م.

(٥) التعبير الفني في القرآن (ص: ٢٩)

(٦) رواه البخاري ومسلم.

(٧) البرهان في علوم القرآن للزركشي ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م ـ (٢٣١/١)

(٨) سورة القمر: ١٧

(٩) سورة العنكبوت: ٤٩

(١٠) مناهل العرفان ـ عبد العظيم الزرقاني ـ القاهرة ط: ١٩٥٤ م ـ (٢٣٤/١)

(١١) رواه البخاري ومسلم

(١٢) أخرجه النسائي بسند صحيح

(١٣) مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة السادسة (ص: ١٢١)

(١٤) الاتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر (٧٢/١)

(١٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

(١٦) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل القرآن ـ المكتبة الإسلامي ـ تركيا ـ ١٩٧٩م (١٠٠/٦)

(١٧) المرجع السابق (١٠٠/٦)

(١٨) رواه البخاري ومسلم وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة وغيرهم.

(١٩) سورة الحجر: ٩

(٢٠) مباحث في علوم القرآن ــ صبحي صالح ــ دار العلم بيروت ــ الطبعة الخامسة ــ (ص:٦٨)

(٢١) مقدمة ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن خلدون مطبعة مصطفى محمد ــ ١٣٢٧ هـ،(ص ٣٩٨،٣٩٧)

(٢٢) جهود مسلمي باني بت في حفظ القرآن. بحث كتبه حافظ سميع الله ــ مكتبة معهد العلوم الإسلامية بجامعة بنجاب ــ لاهور (ص:١٣)

(٢٣) المرجع السابق (ص:٢٤)